مجلة الهلال

مايو 1994

البحث عن مقدمات ثورة 1919 فى مذكرات سعد زغلول

بقلم الدكتور / رءوف عباس

تعد المذكرات التى يكتبها الساسة من المصادر المهمة لدراسة التاريخ، وأهمها ما يكتب على شكل "يوميات" يسجل فيها السياسى ما شارك فيه من أحداث عند وقوعها ويقدم روايته لها بقدر كبير من الصراحة، وخاصة أن "اليوميات" لا تنشر غالباً، وا نما يتخذها السياسى مرجعاً له عند استرجاع مواقف معينة لا تسعفه الذاكرة باستعادة تفاصيلها، أو عندما تعد مذكراته السياسية بعد خفوت الأضواء من حوله وتقاعده.

وكتابة المذكرات تقليد درج عليه الساسة باعتباره مسئولية قومية نابعة من وعى بالتاريخ من ناحية وحرص السياسى على أن تبدو صورته ناصعة أمام التاريخ فيسعى لتبرير مواقفه أمام القارئ، فالمذكرات تكتب عادة لتنشر إما فى حياة السياسى أو بعد رحيله.

ومذكرات سعد زغلول التى يضطلع بعبء تحقيقها ونشرها تباعا منذ عام 1987 دكتور عبد العظيم رمضان، ليست سوى "يوميات" كتبها سعد زغلول بنفسه وليس للناس يسر إليها بمكنون صدره عندما يحس بالحاجة إلى أن يفرج عنه فكراسات المذكرات كانت له بمثابة الصديق الذى يأتمنه على سريرة نفسه، بل كانت المرآة التى تعكس ضمير سعد زغلول الذى لا يراه الناس رؤيته لنفسه، ومن هنا كان حرص سعد زغلول على كتابة هذه اليوميات على طول الفترة الممتدة من 1897 حتى قبيل وفاته عام 1927، وهى سنوات اتصال سعد زغلول بالحياة العامة قاضياً فوزيراً فوكيلا للجمعية التشريعية فرئيسا للوفد وزعيما وطنياً تجسدت فيه آمال الشعب الذى يبحث دائما عن مخلص يلعب دور مهدى الوطنية المنتظر. ومن هنا أيضا حرص سعد زغلول على ألا يتخلف عن الكتابة بقدر الإمكان، فاحتفظ بكراسات ليومياته فى كل مكان يحل فيه: منزله بالقاهرة، وعزبة زوجته بمسجد وصيف، وعزبته بدسونس. بل كان يدفعه الميل إلى الكتابة أحيانا – إلى التقاط الكراس الذى يقع فى يده من بين كراسات يومياته غير المرتبة ليكتب بعض خواطره فيما تركه من قبل من صفحات بيضاء، فاختلطت –فى بعض الكراسات– يوميات يفصل بينها وبين بعضها –أحياناً – عقد من الزمان أو ما يزيد عليه قليلا.

ولما كان سعد يكتب اليوميات لنفسه وليس للناس، فانه لم يدخل فى اعتباره المسائل المتصلة بحس الترتيب والترقيم ووضوح بعض العبارات بل و لحسن الخط، فرغم أن خطه كان سهل القراءة (وان لم يكن حسنا حتى بمعايير زمانه) فانه كان يكتب يومياته بخط متسرع صعب القراءة، وكأنه يحتفظ لنفسه بحق قراءته، وخاصة أن هذه الكراسات التى خصصها ليومياته كانت مبعثرة هنا وهناك بين مكتبه فى بيته والبيتين الآخرين فى عزبة مسجد وصيف وعزبة دسونس، فكأن سعد زغلول أراد باستخدام خط بالغ الرداءة اقرب إلى الطلاسم، جعل قراءة يومياته صعبا عل الفضوليين الذين قد تقع أحداهما فى أيديهم، من خدمه وأقاربه وربما أصدقائه.

إنقطاع سياق الحديث

ولكن فضول المؤرخين عندما تقع أيديهم على كنز زاخر بالمادة التاريخية كهذه اليوميات لا تقف أمامه عقبة كهذه رغم خطورتها، فكان الصديق الدكتور عبد الخالق لاشين أول من فك طلاسم اليوميات عند إطلاعه عليها حوالى عام 1968 بتصريح خاص من وزارة الثقافة ليستعين بها فى دراسته لسعد زغلول، ثم تبعه الكثير من الباحثين عندما أصبح الإطلاع مباحا، غير أن الإطلاع شىء والتحقيق والنشر شىء آخر، ومن هنا يكتسب عمل الدكتور عبد العظيم رمضان ومعاونيه من الباحثين بمركز تاريخ مصر المعاصر أهمية خاصة، ففضلاً عن تقديم قراءة معتمدة لليوميات، تحفل الحواشى بالشروح والترجمة لبعض الشخصيات كلما دعت الحاجة لذلك. وقد اتبع عبد العظيم رمضان تقسيماً زمنياً لليوميات جعله يقدم بعض الكراسات ويؤخر البعض الآخر بل يختار بعض محتويات الكراسات إلى جانب غيرها من مختارات من كراسات أخرى حتى تخرج " المذكرات" المنشورة فى إطار يحفظ لها الإيقاع الزمنى وللحوادث الواردة بها سياقها التاريخى. ومن هنا جاء حرص المحقق على إيراد جدول يصنف فيه اليوميات زمنياً جعله ملحقاً للجزء الأول (الذى نشر عام 1987)، ثم التزم فى النشر ببيان رقم الكراس الأصلى وأحيانا قسم الكراسات إلى أجزاء حسب السياق الزمنى، وحرص على بيان رقم الجزء، ورغم مخالفة ذلك للأصول المنهجية لتحقيق المخطوطات التى تحافظ على النص بنفس الترتيب الذى وضعه صاحبه، فان المنهج الذى اتبعه عبد العظيم رمضان انسب كثيرا ليوميات سعد زغلول، لا ييسر قراءتها فحسب، بل يجعل لقراءتها نفعاً كبيراً عند الرجوع إليها، ولعل هذا المنهج يفسر بعض التكرار الذى تجده فيما ينشر من أجزاء المذكرات، وانقطاع سياق الحديث (أحياناً) عند عرض حدث معين فضلاً عن اتجاه المحقق إلى إرجاء نشر بعض الكراسات الأولى التى كتبها سعد (مما عده لا يدخل فى نطاق المذكرات) لينشر فى أخرها رغم الحاجة الماسة إليه عند دراسة تطور شخصية سعد زغلول نفسه، وبدايات اتصاله بالحياة العامة، غير أن تحقيق المذكرات ونشرها عمل علمى مهم بكل المقاييس.

مصر تنفق على بريطانيا

والجزء السادس من "مذكرات سعد زغلول" (حسب التقسيم الزمنى الرمضانى) الذى نشر فى نهاية 1993، يتناول الفترة من 13 سبتمبر 1916 إلى 25 نوفمبر 1917، وهى فترة تمثل مفرق طرق فى حياة مصر وسعد زغلول فقد كانت تغطى العام الثالث للحماية البريطانية على مصر، وهو – فى نفس الوقت– العام الأخير من حكم السلطان حسين كامل الذى نصبه الإنجليز بعد عزل الخديوى عباس حلمى الثانى. فالعصر عصر سيادة النفوذ البريطانى بلا منازع، فقد أسقطت الحماية البريطانية السيادة العثمانية على مصر، وأوجدت ظروف الحرب العالمية الأولى وضعاً دولياً جديداً اسقط كل الضوابط الدولية التى كانت تحول دون انفراد الإنجليز بأمور مصر انفراداً تاماً، وأدت ظروف الحرب إلى إرغام مصر على تعبئة مواردها لخدمة المجهود الحربى لبريطانيا وحلفائها، مما ترتب على ذلك من أزمة اقتصادية زاد من حدتها ربط الجنيه المصرى بالجنية الإسترلينى، وتحميل الخزانة المصرية نفقات القوات البريطانية مقابل أذونات على الخزانة البريطانية، وما ارتبط بما اتخذته السلطة من إجراءات تتصل بتجنيد الفلاحين المصريين فى فرقة العمل والتدخل فى الزراعة المصرية بما يخدم حاجة القوات البريطانية، بكل ما ترتب على ذلك من آثار اقتصادية واجتماعية.

والفترة التى يتناولها الجزء السادس تعكس جانباً من هذه الظروف الاقتصادية من زاوية أثرها على كبار الملاك الزراعيين الذين كانوا يمثلون كبار منتجى القطن، والذين تأثروا بالأزمة الاقتصادية التى ضيقت أمامهم فرص الكسب الكبير. وجعلتهم يعانون من التوتر والقلق إزاء الكساد النسبى للسوق العالمية للقطن بسبب ظروف الحرب، بقدر ما تعكس حالة القلق السياسى العام على مستقبل مصر بعد الحرب، وما تنويه بريطانيا للبلاد وما دار بفكر النخبة السياسية حول تصور هذا المستقبل.

سعد زغلول يبيع أطيانه من أجل القمار

كذلك كان سعد زغلول فى تلك الفترة الوكيل المنتخب للجمعية التشريعية التى عطلت بسبب ظروف الحرب وا ٍعلان الحماية، فانصرف إلى متابعة شئونه الخاصة، وبذل حسين رشدى ثلاث محاولات لضمه للوزارة باءت جميعا بالفشل كانت أولاها فى ديسمبر 1914 والثانية فى منتصف مايو 1915، أما الثالثة فكانت فى نوفمبر 1917 فى بداية عهد السلطان فؤاد. فكان وضع سعد خلال تلك الفترة وضعاً معلقا انعكس على حالة القلق التى عبر عنها فى يومياته، وهى الحالة التى جعلته يحاول أن يتحاشى مجتمع النخبة فى القاهرة، ويعكف على زراعته فيكثر من الإقامة فى عزبته، ويشغل نفسه بمشاكل الزراعة، والمحصول والآفات، وتقلب الأسعار إلى غير ذلك من أمور يحس قارئ هذا الجزء من المذكرات أن سعداً يحاول أن يلتمس فيها مهربا من حالة الركود السياسى التى كان يعيشها. ويغلب على هذا الجزء من المذكرات تلك الوقفات الطويلة التى وقفها سعد زغلول مع نفسه، فقد تفاقمت عنده مشكلة إدمان الميسر على مائدة " كلوب محمد على" ملتقى النخبة الاجتماعية والسياسية حيث كان يتردد على النادى طوال

وجوده فى القاهرة يلعب الورق حتى الثانية من صباح اليوم التالى (أحياناً) مع حسين رشدى باشا رئيس الوزراء وبعض الوزراء والأمير احمد فؤاد الذى أصبح سلطاناً ثم ملكاً على مصر، وغالبا ما كان سعد زغلول يخسر مبالغ كبيرة جعلته يقترض من البنوك بضمان أطيانه، بل كاد يبيع تلك الأطيان بثمن بخس فى احدى الأزمات التى عانى منها لإسرافه فى اللعبة، بل حدثته نفسه يوما، وهو الوزير الخطير السابق، وصاحب القامة المديدة فى الحياة العامة، أن يسعى للحصول على وظيفة بالأوقاف يستعين براتبها على تغطية نفقاته، وبلغ إدمانه اللعب حد استياء زوجته منه وتهديدها له بالانفصال عنه إذا لم يقلع عن تلك العادة الذميمة.

والحال ...لا يتحسن

واستغرق حوار سعد مع نفسه وتأنيبه لها قسطا كبيراً من يومياته التى نشرت فى الجزء السادس من المذكرات، فهو يقطع على نفسه عهدا بالإقلاع عن اللعبة ثم يتردد على النادى ويكتفى بمتابعة اللاعبين فيشده الحنين للعب ويخسر، فيعنف نفسه تعنيفاً شديدا بلغ الذروة فى قوله " إن حالتى لا تتحسن فيما لا يحله الشرع ولا يجيزه العقل، وان القناعة كنز لا يفنى، ولقد من الله على بسداد ما ترتب فى ذمتى من ديون لا سبب لها إلا هذه الرزيلة، فليس من العقل أن استرسل معها.،بل يلزم أن احد نفسى عنها، وإلا كنت سفيها يجب الحجر عليه، وسخيفاً يلزم الضرب على يديه ".

ولعل هذا الوضع الاقتصادى الصعب الذى جرته على سعد زغلول تلك العادة إضافة إلى الفراغ الذى كان يعانيه، جعلاه ينكب على متابعة أمور الزراعة، وهنا تقدم لنا المذكرات صورة دقيقة لواقع الأزمة الاقتصادية التى عاشتها مصر فى الحرب العالمية الأولى من خلال شهادة مالك كبير كان يؤرقه تقلب الأسعار، وزيادة التكاليف، وقلة الإنتاج، ومخاطر الإنتاج الزراعى إلى حد التأثير على حالته الصحية العامة فتزداد متاعب مرض السكر مع هبوط مؤشرات البورصة، ومراوغة تجار القطن، وتتحسن حالته الصحية مع كل تحسن فى الحالة الاقتصادية. فإذا كانت هذه حال مالك كبير كسعد زغلول، فكيف كانت حال الفلاح الصغير المسكين الذى لا نجد إشارة إليه فى يوميات سعد زغلول، فلم يهتم سعد – عندئذ – إلا بمشاكله الخاصة، ولا يحدثنا عن حال الريف إلا من خلال مؤشرات الإنتاج عنده وعند جيرانه من كبار المزارعين وخاصة عديله محمود شكرى باشا الذى لا يخفى بغضه له (أحياناً) وحسده له لنجاح زراعته (حينا آخر)، وان كان سعد قد لام نفسه كثيرا على هذا الحسد، وآل على نفسه ألا ينزلق إليه مرة أخرى.

وتصل حالة القلق النفسى بسعد ذات مرة إلى حد ضيقه بوضعه العائلى، فهو يشك فى بعض أقاربه ويرى أنهم لا يودونه إلا لمصلحة يطلبونها، ويشك فى نوايا عديله ويميل إلى إساءة الظن به، بل يلمح إلى ضيقه بحياته مع زوجته العاقر ورغبته فى الزواج سرا من إحدى الفلاحات حتى يرزق بولد، ثم

يحاول أن يطرد الفكرة من رأسه بعد أن يبثها يومياته، لا عن رغبة فى تحقيقها، ولكن خشية انكشاف السر وافتضاح الأمر!!

السلطان. . رجل سلبى

وانعكس هذا القلق أيضاً على موقفه السياسى، فهو ينحى باللائمة على السلطان حسين كامل لسلبيته الشديدة وانصياعه للإنجليز، وينتقد حسين رشدى باشا رئيس الوزراء لانصياعه لرغبات السلطان والإنجليز، ولا يرى فى السلطان ووزرائه إلا أدوات فى يد الإنجليز، ويلوم الحكومة لوماً شديدا لإجبارها الأعيان على التبرع لتغطية نفقات الحجاج العاجزين عن تحمل نفقات الحج، وذلك للتشجيع على الحج تأييداً للشريف حسين شريف الذى خرج على الدولة العثمانية وأعلن الثورة مؤيداً فى ذلك بالإنجليز. ثم نجده يلوم الحكومة أيضاً للمبالغة فى وداع موظف بريطانى كبير نقل من مصر، ثم المبالغة فى توديع السير هنرى مكماهون المندوب السامى الذى نقل من مصر أيضا، وا ٍجبار الأعيان على التبرع لإقامة مستشفى خيرى تخليداً لذكرى كتشنر، إلى غير ذلك من انتقادات لأداء الحكومة وعدم الرضا عن انصياعها التام للإنجليز.

ولكننا نجد سعد زغلول يلتمس للحكومة العذر أحياناً مؤكداً أنهم لا يملكون مخالفة الإنجليز مع ما لهم من سطوة بسبب ظروف الحرب، بل نجده يحافظ على صلاته بأقطاب الحكم، فيجاملهم فى المناسبات، ويلتقى بهم فى الحفلات، وفى صالونات " كلوب محمد على" بل يذهب لتوديع مكماهون ويتحمل سوء معاملة السكرتير الشرقى " ستورس" له عندما منعه من مقابلة مكماهون بحجة انشغال الأخير بمراجعة البريد!!

وطلب منه العودة فيما بعد، فعاد فى الموعد المحدد لتحية المندوب المنقول. ونجده يحرص على الترحيب بالمندوب السامى الجديد ريجنالد ونجت، ويرى انه أفضل من مكماهون، ويرسل له برقية تهنئة أورد نصها باليوميات، تمنى فيها لمصر الخير على يديه !! ويسعى إليه مهنئاً عند استلامه مهام منصبه، وعندما المح له إلى أهمية عودة الجمعية التشريعية لمزاولة نشاطها ووجده لا يبدى اهتماماً بالموضوع وجه حديثه معه وجهةً أخرى.

انتقاد الوزراء. . لا يجدى نفعاً

ومع انتقاده للوزراء وتصغيره من شأنهم، نجده يلتمس لهم العذر "لأن نظام البلاد يقضى بذلك، ولا يمكن لذى مصلحة فيها أن يعيش حراً تحت هذا النظام" ويذهب إلى أن "انتقادهم لا يجدى نفعاً الآن"، ورغم توجسه من نبأ اختيار الأمير احمد فؤاد ليخلف حسين كامل فى حكم مصر، ورأيه فى عدم صلاحية المرشح، وانتقاده لسلوكه عشية توليه السلطنة، وعلاقته بأمين يحى باشا الذى لم يكن محل ثقة سعد أو احترامه، رغم ذلك كله نجده يرتاح لترشيح حسين رشدى له لتولى وزارة الزراعة، ويدير حديثاً مع السلطان

الجديد على احدى المآدب الرسمية حول مشاكل الزراعة وسبل النهوض بها، ويحرص على حضور صلاة الجمعة مع السلطان دون دعوى، ويوطد صلته بحسين رشدى باشا رغم شكه فى نواياه.

ولعل اصدق تعبير عن حالته النفسية عندئذ ما ذكره فى يومياته (9 نوفمبر 1917) حول ترشيحه للوزارة "بت ليلى مشغول الفكر، قلق الخاطر، فلم أنم إلا قليلاً وكان فكرى محصوراً فى هذه المسألة وماذا يكون من أمرها. وحدث لى من الاضطرابات والانفعالات ما حدث عند ترشيحى لهذا المسند من عامين، واشتد طمعى فى نجاحها، واشتدت مخافتى من خيبتها. وكنت ألوم نفسى على هذا الخوف وهذا الطمع، ولكنه الميل لا يعلل، والشهو ة تقضى عندما يوجد المقتضى". ونجده ينزعج لمعارضة زوجته لفكرة تعيينه وزيراً واستصغارها لسلوك كهذا فى ظل الظروف السياسية الراهنة، ولكنه أقنعها بعد جهد بفوائد قبوله للمنصب.

وأهم ما إشتمل عليه الجزء السادس من معلومات سياسية، المشروع الذى وضعه حسين رشدى باشا لتنظيم العلاقة بين مصر وبريطانيا فى صورة معاهده مع الإعتر اف لمصر باستقلال ذاتى يتسع تدريجياً حتى يصبح استقلالاً تاماً، على أن تصبح مصر ملكية مقيدة دستورياً تحت رئاسة سلطان وراثى، ووزراء يختارهم السلطان، مع عدم إقامة مصر علاقات دبلوماسية مع الدول، فتتولى عنها ذلك بريطانيا وان يسمح لبريطانيا بأن تحتل أية نقطة فى مصر وان يكون سردار (قائد) الجيش المصرى بريطانياً، وكذلك المستشار المالى الذى يكون له حق حضور جلسات مجلس الوزراء، وان يكون لكل وزارة مستشاراً إنجليزى لا يتدخل فى الأمور التنفيذية، ولا تعين الحكومة المصرية فى الوظائف الفنية إلا من الإنجليز.

ندرة فى الخبرات العسكرية

وقد عرض حسين رشدى المشروع على سعد زغلول فى مقابلة يوم 22 يوليو 1917، فاعترض سعد على المشروع لعدم تقييده للسلطة المطلقة للسلطان، وطالب بضرورة قيام "جمعية" وطنية يكون من حقها أن تقطع برأى نهائى فى الشئون العامة ولها حق مسائلة الوزراء. كما اعترض على إطلاق حق بريطانيا فى احتلال أية بقعة من ارض مصر وطلب أن يختصر ذلك الحق على منطقة القناة وحدها، وعلى سلطان المستشار المالى البريطانى فرأى ألا يكون عضواً لمجلس الوزراء، وان تكون له صلاحيات صندوق الدين، فطلب منه رشدى أن يدرس المشروع بقدر كبير من التأنى.

وتناقش سعد مع عدلى يكن، وتمت الاستجابة لمقترحات سد زغلول فيما يتعلق بالمستشارين الإنجليزى والمستشار المالى، ولكن المسائل العسكرية تركت كما هى لعدم وجود من تتوفر له الخبرة بالمسائل العسكرية من المصريين لاستشارته، فاقترح سعد ألا تبادر الحكومة المصرية بتقديم اقتراح بهذا الشأن وتترك للإنجليز اقتراح ما يرونه بهذا الصدد، ثم ينظر المصريون فيما هو معروض عليهم من الإنجليز.

وهكذا يلقى الجزء السادس من مذكرات سعد زغلول الضوء على ظروف سعد وحالته النفسية والمالية والسياسية فيما بين 1916 – 1917 قبل نحو عام واحد من تصديه لتشكيل (الوفد المصرى) ، كما يلقى الضوء على أحوال مصر الاقتصادية والسياسية فى تلك الفترة، وحبذا لو امتد هذا الجزء ليشمل الفترة حتى أكتوبر 1918 ليعطى صورة كاملة للبلاد عند نهاية الحرب، ولعل الصديق الدكتور عبد العظيم رمضان يدفع العمل قدماً للأمام حتى يكتمل نشر المذكرات فى وقت معقول.